

أُصُولُ الْمَعَامَلَةِ

إخوة الإيمان: قد أظلم شهرٌ كريمٌ وموسمٌ عظيمٌ؛ إنه شهر رمضان المبارك، شهر الخيرات والبركات والعطايا والهبات، شهراً تكاثرت خيراته وتعددت بركاته وتنوعت فيه العطايا والهبات، وها أتم عباد الله في اليوم الثاني عشر من هذا الشهر المبارك، وفي بداية خيراته وبركاته، فاحمدوا الله جل في علاه أن بلغكم رمضان، وسلوه جل في علاه أن يعتمكم خيراته العظام، واتقوا الله ربكم، فإن من اتقى الله وقاه، وأرشده إلى خير أمور دينه ودنياه، وراقبوه في جميع أعمالكم؛ مراقبة من يعلم أن ربه يسمعه ويراه.

أما المؤمنون: روى الترمذي في جامعه من حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ، أي: اتقه في الخلوة كما تتقيه بحضرة الناس، واتقه في سائر الأمكنة والأزمنة، ومما يعين على التقوى استحضار أن الله تعالى مطلع على العبد في سائر أحواله؛ قال تعالى: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ، قال المناوي رحمه الله: هذا الحديث من القواعد المهمة؛ لإبانتة لخيري الدارين، وتضمنه ما يلزم المكلف من رعاية حق الحق والخلق، وقال بعضهم: هو جامع لجميع أحكام الشريعة؛ إذ لا يخرج عنه شيء، وقد فصل فيه تفصيلاً بديعاً؛ فإنه اشتمل على ثلاثة أحكام، كل منها جامع في بابه، ومرتب على ما قبله، إخوة الإيمان: جمع هذا الحديث العظيم جماع الوصايا في ثلاث وصايا عظيمة أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه، وأتت هذه الوصايا الثلاث على أصول المعاملة وأسستها: معاملة العبد بينه وبين الله ومعاملة العبد بينه وبين نفسه، ومعاملة العبد بينه وبين عباد الله، أما المعاملة مع الله فإنها قائمة على التقوى؛ تقوى الله جل وعلا التي هي وصية الله للأولين والآخرين من خلقه كما قال جل وعلا: وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وهي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، وهي وصية السلف الصالح فيما بينهم، وتقوى الله جل وعلا: عملٌ بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وتركٌ لمعصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله، وقيل: أن التقوى كلمة جامعة لفعل الواجبات وترك المنهيات، مع مراقبة الله تعالى: من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، وأما معاملة المرء مع نفسه فهي قائمة على رؤية التصير في عمله وأنه عرضة للخطأ وارتكاب السيئة واقتراف الذنب، فيحتاج المقام مع النفس إلى مجاهدة مستمرة، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ؛ أن يجاهد العبد نفسه على الاستكثار من الحسنات واغتنام مواسم الطاعات وأوقات العبادات، ليجعل لنفسه منها حظاً ونصيباً وافراً، وَأَتَّبِعِ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وهذا إنما يكون من العبد بالمجاهدة لنفسه على الاستكثار من الحسنات فإنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، وأما المعاملة بين المرء وعباد الله فإنها قائمة على الخلق الحسن؛ وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وإن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، وفي شهر رمضان يترقى المسلم على الكثير من القيم والأخلاق التي تهذب سلوكه، وتصلق شخصيته، وتورثه الذكر الحسن، والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة؛ إنه لينبغي أن نربي أنفسنا على الأخلاق الفاضلة، ونجعلها سلوكاً نتعامل بها في واقع الحياة، والخلق الحسن يقوم على ركيزتين عظيمتين وأصلين متينين، الأول: سلامة القلب تجاه عباد الله؛ بأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، لقوله صلى الله عليه وسلم: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، والركيزة الثانية: أن يأتي إلى الناس من الأعمال والأقوال ما يحب أن يؤتى إليه، فيعاملهم نظير ما يحب أن يعاملوه به، كما قال صلى الله عليه وسلم: وَتَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ، والخلق الحسن كما أنه يحتاج إلى جهادٍ للنفس لتتحلى بمكارم الأخلاق وفاضلها، فإنه يحتاج أيضاً إلى لجوء كامل إلى الله جل في علاه، لأنَّ الأخلاق وهائب ومنن إلهية، كما قال بعض السلف: إن هذه الأخلاق وهائب وإن الله إذا أحب عبده وهبه منها، وفي الدعاء المأثور: اللهم اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ.

اعلموا إخوة الإيمان: أن هذه الحياة الدنيا دار مر ومعبر وأعمال، والآخرة دار خلود وبقاء ومقر، وجزاء على الأعمال، فالكيس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت؛ فاستعد لدار الجزاء والحساب بالعمل الصالح، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفة والغنى، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل اللهم الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ووالديهم وذرياتهم وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات اللهم اغفر لنا ذنوبنا كله؛ دقّه وجلّه، أوله وآخره، علانيته وسره، ربنا إنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خطبة الجمعة ليوم 22 مارس 2024 م